المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - الجمهورية العراقية

WWW.ATTAWEEL.COM

المجلد السادس عشر
ربيع ١٩٨٧
العدد الأول

رئيس التحرير حازم الكيبي

سكينة التحرير هدى شوكت بهنام

أسد الدين محمد

بشار بن برد وسياسة عصره

الدكتور

فاروق عمر فوزي

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

مقدمة

من المعلوم ان بشار بن برد(١) كان من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية فقد عاش في اواخر عهد الدولة الاولى وقتل في عهد الخليفة المهدي العباسي سنة ١٦٨ هـ / سنة ٧٨٤ م .

والمتفق عليه لدى عامة مؤرخي الادب العربي المحدثين(٢) ان بشارا لم يكن شاعرا سياسيا يلتزم بعقيدة سياسية ـ دينية معينة، كما لم يعرف عنه انه كان شاعر بلاط لازم خليفة اوامير او واليا وعاش في كنفه ، ويبدو لنا أن طبيعة بشار بن برد المتمردة ونفسيته الحائرة وهجاءه المقذع هي التي نفرت الخلفاء منه فلم يجعلوه من صحابتهم المقربين. لعل نفس هذه العوامل جعلت من بشار شاعرا متحررا لا يحب الالتزام ولا يستقر على عقيدة سياسية معينة ولا يستطيع الارتباط بشخص او ببلاطه .

ومع ذلك فان ما جبل عليه بشار بن برد من حس مرهف وادراك ذكي وشاعرية فذة جعلته حين يريد ان يدافع عن وجهة نظر سياسة معينة يضرب على الوتر الحساس وكأنه واحد من الملتزمين بتلك الفكرة والمؤمنين بها فيدرك بيت القصيد باسلوب قوي ومعنى اقوى !!

وفي بحثنا هذا سنتعرض إلى المسائل السياسية الحساسة التي تطرق إليها بشار بن برد وسنلاحظ كيف ان هذا الشاعر البصير كان يدرك بفطنة فذة وذكاء حاد اعمق المسائل السياسية واكثرها دقة وحساسية في عصره ، ويتطرق اليها بلغة بليغة تشفي غليل الفئة التي يخاطبها ويحتج لها ويثير الفئة التي يحتج عليها ويفحمها .

على ان بشار بن برد افسد ذلك كله بسبب عدم التزامه اوجديته فيما يقول.... بل كان يقول بالشيء ويضده ويحتج للامويين ثم يندد بهم ثم يحتج للعباسيين ولا يلبث ان يهاجمهم وهكذا . ولعل هذه الانتهازية الواضحة هي التي اضعفت من اهمية شعره السياسي وجعلت هذه الفئات السياسية

المتنازعة لا تكترث به ولا تلتزمه ولا تغدق العطاءعليه كما اغدقت علي شعراء معاصرين له ولكنهم اكثر التزاما منه . كما وان هذه الظاهرة نفسها هي التي جعلت مؤرخي الادب العربي لا يعتبرون بشارا شاعرا سياسيا رغم كثرة القصائد ذات المغزى السياسي في ديوانه .

بشار ونهايات العصر الاموي :

شهد بشار اواخر عصر الامويين ومدح العديد من الولاة الامويين في العراق(٣) مثل عبدالله بن عمر ابن عبدالعزيز ويزيد بن عمر بن هبيرة كما مدح سليمان بن هشام بن عبدالملك وقتيبة بن مسلم الباهلي . ويؤرخ بشار بن برد لاكثر من واقعة شهدها عصر مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين ، ويمتدح اجراءاته وشدة بأسه رحنكته السياسية والعسكرية وجهوده المضنية من اجل تثبيت اركان الخلافة الاموية حتى استطاع ان يهزم المتمردين عليه في الشام والعراق والجزيرة واليمن والحجاز مستندا على قبائل قيس .

وفي نفس القصيدة يمتدح بشار القبائل القيسية ووقوفها الى جانب مروان فيقول(٤) :

من الحي قيس قيس عيلان انهم ... عيون الندى منهم تروى سحائبه

ويقول : وسام لمروان ومن دونه الشجا ... وهول كلج البحر جاشت غواربه

احلت به ام المنايا بناتها ... باسيافنا انا ردى من نحاربه

وبعد ان ينتهي بشار بن برد من وصف وقائع مروان في القبائل اليمانية في بلاد الشام يذكر تحرك مروان بن محمد لقتال الضحاك بن قيس الشيباني بالعراق وقتله له سنة ١٢٩ هـ / سنة ٧٤٧ م فيقول(٥) :

فلما استقينا بالخليفة منهمو ... وصال بنا حتى تقضت مآربه

دلفنا الى الضحاك نصرف بالردى ... ومروان تدمى من جذام مخالبه

معدين فرغلما واسود سالخا ... حتوفا لمن دبت إلينا عقاربه

وما اصبح الضحاك الا كثابت ... عصانا فأرسلنا المنية تادبه

وفي نفس هذه القصيدة يدافع عن حق مروان بن محمد بالملك وانه وارثها الشرعي وشأنه الانتصار لانه صاحب الحق الشرعي فيقول :

بعثنا لهم موت الفجاءة اننا ... بنو الملك خفاق علينا سبائبه

وحين ثارت قبائل العرب اليمانية في خراسان والعراق وانضمت الى الدعوة العباسية هاجم بشار ابن برد الثورة وافتخر بنصرة القبائل المضرية لمروان بن محمد فقال(٦) :

لقد علم القبائل غير فخر ... على احد وان كان افتخار

بأنا العاصمون اذا اشتجرنا ... وانا الحازمون اذا استشاروا

ضمنا بيعة الخلفاء فينا ... فنحن لها من الخلفاء جار

بحي من بني عجلان مشوش ... يسير الموت حيث يقال ساروا

اذا زخرت لنا مضر وسارت ... ربيعة ثمت اجتمعت نزار

ويقول : لنا بطحاء مكة والمصلى ... وما حاز المحصب والجمار

وساقية الحجيج اذا توافوا ... ومبتدر المواقف والنفار

ومنبر ذي الذي وصاحبيه ... تلادا لا يباع ولا يعار

ويقـول : الم يبلـغ ابا العباس انـا وترنـاه وليـس بـه انتـار
غـداة تصبـرت كلب علينـا وليـس لها على المـوت اصطبار

بشـار والدعوة العباسية :

ولكن الدعوة العباسية انتصـرت ، وشهدبشار بن برد هذا الانتصار ورغم تنديده بالدعوة العباسـية وبزعيمها ابي العباس عبدالله بن محمد(السفاح) فقد بدا يهيىء نفسه للتقرب من الدولة العباسية الجديدة وموالاتها فمجد الانتصار العباسيووصف مروان « بالطغيان » فقال(٧) :

ومـروان مـا ان طغى واتتكـم زوائـر منـه بادئـات وعـودا
نصبتم له البيض اللوامع بالردى وخطية اخمـدن ما كان اوقـدا
ففرقتم اشـياعه وهدمتـم بملككـم العادي ملكا مـولـدا
فاصبح مطلوبـا واب براسـه كتائب أدركن الحمار المطـردا

وفي هذه القصيدة خلد بشـار بن برد الانتصارالعباسي في (معركة الزاب) قرب الموصل بالجزيرة الفراتية واشار الى هرب مروان الى الشام فمصرومقتله في (بوصير) قرية بصعيد مصر سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ م .

وفي قصيدة اخرى هجا مروان قائلا(٨) :

لمـروان مواعـيـد كـاذبـات كما برق الحبـاء وما اسـتهلا

وهكذا غدا بشار في عداد شيعة العباسـيينوانصارهم والحق نفسـه بالدعوة الجديدة والدولة الجديدة متناسيا ما قاله في الامويين خلفاء وامراءوولاة !!

بشـار وادعاء العباسيين بالخلافـة :

المعروف تاريخيا ان ادعاء العباسيين بالخلافةمر بمرحلتين(٩) :

ففي فترة الدعوة السرية نادوا بأن حقهـمبالخلافة يعود الى وصية ابي هاشم عبدالله بن محمد ابن علي بن ابي طالب الذي اوصى لمحمد بن عليالعباسي بزعامة الحركة السرية الهاشمية ، ولكن ما ان نجحت الثورة وتأسست الدولة حتى تناسىالعباسيون التنظيم السري الهاشمي وادعوا بـان حقهم بالخلافة يرجع الى العباس بن عبدالمطلبعم الرسول (ص) ووارثه وقد تبلورت هذه الدعوة الجديدة في عهد المهدي ثالث الخلفاء العباسيين .

لقد اكد العباسيون في دعواهم بالخلافة علىثلاثة امور رئيسة هي : حق القـرابة باعتبار ان العباس عم الرسول (ص) وانه كان حيا عند وفاةالرسول (ص) فهو وربثه بوصية منه . ثم حـق الحرمة باعتبار ان العباس كان مـؤولا عن سقايةالحجيج في الكعبة قبل الاسلام وبعده . اما الحق الثالث فهو حق القوة والاقتدار فقد طور العباسيونفكرة ان بني هاشم عموما لهم نفس الحق بالخلافة وان الذي يحقق منهم الانتصار على الامويين يكوناحق بها وبما ان العباسيين انتصروا على الامويين بثورة عارمة فان الخلافة لهم دون غيرهم .

لقد استوعب بشـار بن بـرد هذه المظاهرالرئيسة في دعوى العباسيين واكد عليها في قصائده بلغة بليغـة واسلوب قوي وحس مرهف . واليكنماذج من ابياته في ذلك قال(١٠) :

ابنـاء املاك من صـلى لقبلتنا فكلهم ملك بالتـاج معتصـب
دم النبـي مشـوب في دمائهـم كما يخالـط مـاء المزنـة الضرب

وقال بشـــار في قصيدة اخرى(١١) :

ميراث من بوركت نبوءته ... فالدين فيهم فالامر ما امروا
اباؤك الصيد من قريش اذا ... زعزع ربط المنية الذعر
منهم سقاة الحجيج قد علموا ... وقاتل المحل ماله جزر

وقال بشار في قصيدة اخرى :

وانتم سقاة الحج لولا حياضكم ... ودلائكم لم تحمد الناس موردا
ورثتم رسول الله بيت خلافة ... وعزا على رغم العدو وسؤددا

بل ان بشار بن برد ضرب على وتر حساس آخر في تعزيز دعوى العباسيين وهو موقف العباس ابن عبدالمطلب (يوم حنين) حين تقابل المسلمون مع هوازن ودارت معركة حامية فر في اولها جمع من المسلمين وثبت الرسول (ص) وعباس عمه ونفر من المسلمين . وقد امر الرسول (ص) عمه العباس ان ينادي باعلى صوته يحرض المسلمين على العودة الى الصفوف والقتال ، فيقول :

لكم نجدة العباس في كل موطن ... ويوم حنين اذ اشاع وانهدا
مقيم يذب المشركين بسيفه ... حفاظا وقد ولى الخميس وعردا

ويقول بشار في قصيدة اخرى :

حبر قريش منهم وسيفهم ... يوم حنين والبأس منتحر(١٢)

لقد نسي بشار بن برد او تناسى فخر ه بالقبائل القيسية المضرية التي ساندت مروان بن محمد في بداية قيام الثورة العباسية وانتسابه لها . فانقلب على الخلافة الاموية وناصر دعوى العاسيين وكأنه احد الشيعة العباسية ونسب نفسه الى اهل خراسان من بلخ الذين ناصروا العباسيين مع من ناصرهم واشار الى احداث ووقائع حدثت ابان الثورة العباسية فقال(١٣) :

انا ملوك لم تزل ... في سالفات الحقب
نحسن جلبنا الخيل من ... بلخ بغير الكذب
حتى اذا ما روضت ... بالشام ارض الصلب
سرنا الى مصر بها ... في جحفل ذي نجب
ويقول : حتى رددنا الملك في ... اهل النبي العربي
بهز ابا الفضل بها ... اولى قريش بالنبي

ورغم النعرة العنصرية في الابيات الاولى من هذه القصيدة حيث يفتخر بشار بابائه من الفرس اخواله من الروم ذلك لان بشار بن برد كان يرد في هذه القصيدة على بعض الاعراب الذين هجوه واستهزؤا به، فان بشاراً كماهو واضح من الابيات التالية يربط نفسه برباط الولاء للبيت العباسي العربي ويجعل نفسه احد صنائع العباسيين .

بشار بن برد وولاية العهد :

شهد العصر العباسي نزاعا خفيا حينا وعلنيا احيانا على السلطة ، وقد دار هذا النزاع بين امراء البيت العباسي نفسه . ولعل اوضح مظاهر هذا النزاع هو المنافسة بين رغبة الخليفة الحاكم من ان يكون ابنه وليا للعهد وبين ولي العهد الشرعي الذي كان الخليفة السابق قد اوصى بتنصيبه .

ويبدو ان الخليفة ابا العباس قبل ان يستقر رايه على تعيين اخيه القوي وساعده الايمن ابي جعفر المنصور وليا للعهد خامرته رغبة في ترشيح ابنه محمد لولاية العهد ولكن هذه الرغبة لم تتحقق.

وحين جاء المنصور للخلافة عهد لمحمد بن ابي العباس ببعض المهام الادارية والحربية. ويبدو ان المنصور كان يدرك ضعف محمد بن ابي العباس فاوكل اليه بعض المهام ليكشفه للناس لئلا ينافس ابنه محمد المهدي في ولاية العهد !!

ومهما يكن من امر فان بشاراً امتدح محمدبن ابي العباس حين ولي البصرة وابرز فيه صفة مهمة لم تكن في المنصور ولا في ابنه المهدي وهي انهمن اب وام عربيين حيث يقول(١٤) :

تخولت مخزوما وفزت بهاشم فاصبحت من فرعي قريش مردفا

ولاشك ان هذا البيت ازعج الخليفة المنصورحين سمعه ، لان هذه الصفة هي التي رجحت كفة ابي العباس (السفاح) على اخيه ابي جعفر (المنصور)في الاسبقية لشغل منصب الخلافة رغم ان الثاني اكبر سنا من الاول واكثر قدرة وقابلية .

كما وان بشار بن برد مدح سيرة محمد بن ابي العباس وسياسته في البصرة على عكس ماروته الروايات التاريخية من ضعفه ومخالطته للمجان والظرفاء فيقول(١٥) :

اغر عليم بالسياسة لم يقم عنيفا ولا رث القوى متهددا

حتى يقول :

فبلغ امير المؤمنين وقل له بعثت علينا من اراح وارقدا

وحين رشح المنصور ابنه المهدي لولاية العهدوطلب من ولي العهد الشرعي عيسى بن موسى ان يتنازل سخر بشار بن برد قلمه لمدح المهدي ولتحقيق غرض المنصور . ووصف بشار محمد بن المنصور في عدة مناسبات بانه القائم والمهدي اي المنقذ المنتظر ، لتاكيد الصفة المهدوية التنبؤية فيه كما ارادها المنصور .

تؤيد قصائد بشار بن برد الروايات التاريخيةحول دور الربيع بن يونس صاحب المنصور ووزيره في ابقاء الخلافة في نسل ابي جعفر المنصور . فلقدوافت المنية المنصور وهو في طريق العودة الى العراق من الحج ، وقد طلب المنصور من الربيع ان يجمع بني هاشم والصحابة ويأخذ البيعة للمهدي منهم مؤكدا ان تاكيد البيعة هي رغبة الخليفة نفسه وقداخفى الربيع عن بني هاشم نبأ وفاة المنصور واخذ البيعة منهم واحد فواحداً . يقول بشار(١٦) مؤرخاهذه المناسبة :

قل للخليفة ان خلصت اني الخليفة غير باعد
ان الربيع فاتنه نعم الوزير على الشدائد
شهدت نصيحته بمكة اذا ثوى ملك البلائد
ضبط الخلافة واحدا لم يدر ك اي واحد
منزال يكتم امرها ويهزها هز المناجد

حتى يقول :

حتى صفت لمحمد مادون ذا نصح لزائد

ولعب الربيع بن يونس دورا مهما حين ارادالمهدي بدوره ان يرشح ابنه موسى الهادي لولاية العهد وينحي عيسى بن موسى من الولاية مرةثانية وقد هدد الربيع بن يونس عيسى بن موسى وانذره بان ابنه موسى مستقبل لا محالة اذا هو لم يتنازل عن ولاية العهد والى ذلك الدور يشير بشار بن برد قائلا :

وسما (اي الربيع) بموسى غير وا ن حين زلزلت الموارد
ومضى على منواله حسن اليدين على الاحاسد

ويقول :

واذا ذكرت فعاله بشرت نفسي بالفوائد
سبق الربيع بفضله ايام مكة كل قائد

وفي قصيدة اخرى يمتدح بشار اجراءات المهدي بولاية عهده الى موسى فيقول(١٧) :

وعند ولي العهد شاف من الجوى ... فروحا عليه ذكرة بشكاتي
لعل امين الله موسى بن احمد ... يذوق لنا كاسا من السلوات
هو الملك المامول والقائم الذي ... يؤلف بين الذئب والنقرات

ثم يقول : على ملكه نمت قريش وافرطت ... قبائل من ود نه وعداة
فقل للذي يرجو الخلافة بالمنى ... تنح لموسى صانع الحسنات

وواضح من هذه الابيات ان خلفاء بني العباس استغلوا النبوءات حول مجيء المنقذ المنتظر وما لها من تاثير على جماهير العامة من الناس فكان كل خليفة يضفي على ولي عهده الذي يختاره صفات المنقذ لكي يكسب ولاء الجماهير اليه وانقيادهم له.

ومن قصيدة اخرى لبشار بن برد تبدو المنافسة واضحة بين فرعي بني العباس ابناء ابي جعفر المنصور بناء عمومتهم ولذلك فان بشاراحيث يخاطب الفرع الحاكم يسميهم (بني ابي جعفر) باعتباره ابا الملوك مثلما كان عبدالملك بن مروان(ابا الملوك) في البيت الاموي فيقول(١٨) :

بني ابي جعفر ياخير من حملت ... على غوارب بها الصيدية الاجد

وفي نفس هذه القصيدة يعرض بشار بن بردمرة اخرى بعيسى بن موسى ويحث المهدي على عدم التردد في اخذ البيعة لموسى ومن بعده لهارون حيث يقول :

والله اصلح بالمهدي فاسدنا ... سرنا اليه وكان الناس قدفقدوا
حتى يقول : يا ايها القائم المهدي ملككمو ... لا يشركنكمو في حلوه احد
ان كنت ملتمسا يوما لها رجلا ... يكفي رجالك ان غابوا وان شهدوا
فاسمع وقيت حمام الموت من رجل ... ما في مشورته أفن ولا نكد
تدعو الى ابنك موسى وهو محتنك ... في سنه وبه ما انعم الجند
حتى يقول : فاعقد له يا امير المؤمنين ولا ... تنظر به امرا قد طال ذا الامد
واجعل بعينك فيه الان قرتها ... كساعد مغرد لبست له عضد

ويعقد بشار بن برد في قصيدة اخرى مقارنة بين الخليفة وولي عهده ويربط اسم المهدي بالهادي ممتدحا خلقهما واهليتهما للملك والخلافة فيقول(١٩) :

بين الامام وموسى لامرىء شرف ... هذا البمام وهذا حية الوادي

بشار ودعوى المهدي :

عاش بشار في فترة انتقال كثرت فيها الملاحم والنبوءات عن قرب ظهور « المنقذ المنتظر الذي سيملأ الارض عدلا » حيث رفعت العديد من الحركات المعارضة للامويين شعارات المنقذ ومنها الثورة العباسية . ولكن ما ان انتصرت ثورة العباسيين واستقرت خلافتهم حتى استغل الخلفاء العباسيون هذه النبوءات فظهر كل منهم بمظهر المنقذ المنتظر وتلقب بلقب يدل على ذلك مثل القائم والمنصور والمهدي والهادي والرشيد . ويبدو من هذه الالقاب المتتابعة في مطالع العصر العباسي ان الخليفة الحاكم كان يلقب ولي عهده بلقب مهدوي من اجل ان يحول انظار الجماهير اليه ويكسب تاييدهم له باعتباره المنقذ الجديد الذي سيحقق آمالهم وتطلعاتهم .

وهكذا فقد لقب الخليفة ابو جعفر المنصور ابنه وولي عهده محمد بلقب المهدي كاجراء من جملة الاجراءات التي تعده ليكون خليفة المستقبل .ويبدوان المهدي حين جاء للحكم حاول جاهدا ان يظهر بمظهر المنقذ والمصلح من خلال الاجراءات السياسية والاقتصادية التي قام بها .

لقد ضرب بشار بن برد على هذا الوترالحساس واكد في اكثر من مناسبة مهدوية الخليفة العباسي الثالث التي اثبتتها كتب الملاحم والجفرعلى حد قول بشار بن برد(٢٠) :

فرج المهدي من كرب الضيـ ـق خناقا فاستيته حقبا
مهدي آل الصلاة يقرا القـ ـس كتابا وتراجلا ريبا

وقال :

الله اصلح بالمهدي فاسدنا سرنا اليهوكان الناس قد فسدوا

ويقول : يا ايها القائم المهدي ملككمو لا يشركنكمو في حلوه احد

قال : بكفيكها مهدي آل محمد احاط بها عن والد غير قمدد

هذه نماذج من الاشارات العديدة التي تطرق فيها بشار بن برد الى الصفة (المهدويه) فيشخصية الخليفة العباسي الثالث الذي ربما كان اكثر الخلفاءالذين مدحهم بشار بن برد قبل ان ينقلب عليهم في نهاية المطاف !! . ولاشك فان تاكيد هذه الصفةفي شخصية الخليفة كانت لها معانيها السياسية في مجابهة حركات المعارضةللحاكم العباسي التي كانتهي الاخرى تدعي بان لها منقذها المنتظر(٢١) .

شار والموالي :

كان بشار بن برد من الموالي فقد وقع ابوه في سبي المهلب بن ابي صفرة في خراسان وما وراء النهر سنة ٨٠هـ / سنة ٦٩٩م فصار عبدا انتقل منآل المهلب الى امراة من بني عقيل . ويعتبر بشار موطنه خراسان « واني لمن قوم خراسان دارهم ». اما امه فبني دوماية ولذلك يقول بشار : « وقبصر خالي اذا عددت يوم نسبي » .

وقد اعتق بشار بعد موت ابيه فصار مولىلبني عقيل بن كعب من بني عامر وفي ذلك يقول :

ابى خراسان وادعوا عامرا اكرم حي اولا وآخرا

ويقول ايضا :

نمت في الكرام بني عامر فروعي وانمى قريش العجم

وفي نفس المعنى يقول :

انا ابن ملوك الأعجمين تقطعت علي ولي في العامريين عمائد

وقد اتهم بشار بانه كان يفسد موالي العربعليهم ويدعوهم الى الانتفاء منهم وربما كانت بعض الابيات الشعرية التي قالها بشار تؤكد ذلك مثلقوله :

اصبحتمولى ذي الجلال وبعضهم مولى العريب فخذ بفضلك وافخر
مولاك اكرم من تميم كلها اهل الفعال ومن قريش المشر(٢٢)

وفي اعتقادنا ان هذه القصيدة فورة منفورات بشار بن برد يرد فيها على بعض من هجاه . وعليه فهي موقف استثنائي وليست وجهة نظرثابتة وموقفا مبدئيا عند بشار ؛ ذلك ان بشارا عاش فيمجتمع عربي اسلامي متنقلا بين مدن العراقوتشبع بالثقافة العربية والقيم الاسلامية والارث الحضاري العربي فاصبح جزءاً لا يتجزا من ذلكالمجتمع وثقافته كما يدل على ذلك ديوانه.

والواقع ان بشارا حينما يفخر بنسبهمن العجم والعرب على حد سواء فهو يفخر باصله القديم وبولائه الجديد وهذا هو موقف الموالييصفتهم كتلة متميزة في العصر العباسي وخاصة في عصر المهدي الذي اعتمد عليهم اعتماداً كبيراً . فلمتكنكتلة الموالي اعجميةصرفة وعربية خالصة بلهي في اصولها الاعجمية وواقعها العربي الجديد غدتكتلة تختلف عن العجم والعرب على حد سواء . وهذه النظرة الى كتلة الموالي يؤكدها الجاحظ حينيقول ردا على احد نقاده بان كتابه (العرب والموالي)

يختلف عن كتاب (العرب والعجم) ذلك لان الفروق بين العرب والعجم ليست كالفروق بين العرب والموالي فالروابط السياسية والثقافية والاجتماعية التي ارتبطت بها كتلة الموالي مع الخلافة العباسية طغت على الرابطة العنصرية وهذا ما جعل كتلة الموالي تختلف عن العجم(٢٣) .

وفي نفس هذا المعنى يشير بشار بن برد الى موقف الموالي المتميز عن كتلتي العرب والعجم فيقول :

نفسي الفداء لاهل البيت ان لهم ... عهد النبي وسمت القائم المهدي
لم يحكموا في مواليهم وقد ملكوا ... حكم المحل ولا حكم ابنه العادي
لكن ولونا بانصاف ومعدلة ... حتى هجدنا وكنا غير هجاد

حتى يقول : صلت لكم عجم الافاق قاطبة ... فوج وفواد وفوج غير وفاد
ثم يقول : انصفتموا فعابوا حكمكم حسدا ... والله يعصمكم من غل حساد
سطوا علينا بان كنا مواليكم ... وعيرونا باباء واجداد
ثم يقول : لما راونا نواليكم وننصركم ... ثاروا علينا باضغان واحقاد(٢٤)

ويبدو ان بشارا يرد في هذه القصيدة على شيعة بني امية الذين كان لهم في بعض المدن والاقاليم وزن سياسي كبير حيث يقول :

قالوا بنو عمكم من حيث ننصركم ... قول الرسول وهذا قول سداد
لولا الخليفة انا لا نخالفه ... لقد دلفنا لارواد بارواد
حتى ترونا وعين الشمس فاترة ... في كوكب كشعاع الشمس وقاد
ويقول : هناك ينسون مروان وشيعته ... ويطرقون حذار المنبر العادي
دون الخليفة منا ظل قاسرة ... ومن خراسان جند بعد اجناد
قوم يذبون عن مولى كرامتهم ... ويحسنون جوار الوارد الصادي

ولابد من القول بان بشارا حين يفخر بخراسان واهل خراسان لايفخر بهم لكونهم عجما ذلك لانهم لم يكونوا كلهم كذلك بل ان الاصطلاح لا يعني اصطلاحا عنصريا بقدر ماكان اصطلاحا اقليميا يضم من الناحية البشرية العرب وغير العرب من اهل خراسان .

والملاحظ ايضا ان بشارا حين يفخر على من هجاه من الاعراب او غيرهم يقارن نفسه بالعرب العظام وبمشاهير فرسان العرب امثال فارس العرب كعب بن زهير التغلبي والفارس بسطام بن قيس الشيباني ، فيقول(٢٥) :

اسرت وكم تقدم من اسير ... يزين وجهه عقد الاسار
ككعب او كبسطام بن قيس ... اصيبا ثم ما دنسا بعار

وقد انتسب بشار الى قيس عيلان وافتخر بهم وذكر مواقعهم . وافتخر بمضر لان بني عقيل من المضرية(٢٦) . كما مدح بشار العديد من قبائل العرب والشخصيات العربية . فمن القبائل مدح قيس عيلان وبني عامر وخاصة عقيل وربيعة ومضر وقريش وبني مروان وبني العباس . وامتدح من الشخصيات مروان بن محمد وابا العباس السفاح والمنصور والمهدي والهادي . ومحمد بن ابي العباس والعباس بن محمد بن علي وداود بن سليمان بن علي والوليد بن العباس وسليمان بن هشام بن عبدالملك وعبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عمر بن هبيرة وقتيبة من مسلم الباهلي وعقبة من مسلم ويزيد بن حاتم المهلبي وغيره من المهالبة وآل شيبان ويبدو ان نسبة مدحه وفخره بالقبائل والشخصيات العربية تفوق نسبة هجائه لها كما وانها تفوق نسبة مدحه لغير العرب . فعندما فخره بنفسه واصله ردا على من هجاه من الاعراب فقد مدح البرامكة وابرز صفة الكرم لديهم .

واخيرا وليس آخرا فان بشار بن برد نـدد ببعض حركات المعارضة الفارسيّة التي حدثت في عصره مثل حركة يوسف البرم التي يعتبرها البعض حركة ايرانية وكذلك حركة المقنع الخراساني واشاد بجهود السلطة العباسية التي اخمدت هذه الحركات. كما وانه هجا ابا مسلم الخراساني وهو من اصل فارسي .

وعلى ذلك فان مواقف بشار وقصائده في مدح العرب ـ اذا استثنينا بعض « فوراته » التي كانت رد فعل عاطفي غاضب ـ لا تقيم دليلا على ميله الى الفرس اوشعوبيته، بل على العكس فان بشارا حين مدح القبائل والشخصيات العربية افتخر بامجادها ووقائعها وتراثها وهذا ما لايفعله الشعوبيون . كما وان بشارا لم يشكك بلغة العرب وتاريخهم وارثهم الحضاري كما كان يفعل الشعوبيون ، هـذا اذا استثنينا الابيات التي نسبت اليه من قبل اعدائه الشخصيين او من قبل المعتزلة وغيرهم فيما يتعلق بعقيدته الدينية او مواقفه الاخرى .

واخيرا وليس آخرا فان افتخار بشار باصله ونسبه وادعائه بانه من « قريش العجم » وارتباطه بالولاء مع بني عامر يؤكد تأثره بالبيئة العربية والثقافة الاسلامية التي اكدت على اهمية الاصول والانساب . على عكس القيم الفارسية التي اكدت على الاقليمية ونسبت الناس الى مدنهم وقراهم .

بشار بن برد والمعارضة :

واجه العباسيون بعد تأسيس دولتهم انواعا شتى من حركات المعارضة يمكن تقسيمها الى : معارضة خارجية ومعارضة علوية ومعارضة فارسية. والواقع ان كل القصائد التي نظمها بشار دفاعا عن حق العباسيين بالخلافة تعتبر موجهة ضد المعارضة للعباسيين .

لقد نظم بشار عدة قصائد يندد في ابيات منها بالامويين ففي قصيدة طويلة اشار الى وقائع الشيعة العباسية بالامويين وهروب مروان بن محمد ثم مقتله في صعيد مصر . وقد اشرنا الى هذه القصيدة سابقا .

وفي قصيدة اخرى هاجم بشار سياسة الامويين تجاه الموالي وقارن بينه وبين العباسيين في هذا الشأن حيث قال(٢٧) :

نفسي الفداء لاهل البيت ان لهم ... عهد النبي وسمت القائم الهادي
لم يحكموا في مواليهم وقد ملكوا ... حكم المحل ولا حكم ابنه العادي
لكن ولونا بانصاف ومعدلة ... حتى هجدنا وكنا غير هجاد

وقد وصف عبدالملك بن مروان (بالمحل)لانه احل حرمة الكعبة حين امر بالهجوم عليها حين ثار عليه عبدالله بن الزبير .

وفي نفس القصيدة هاجم شيعة الامويين وانصارهم فقال مهددا :

لولا الخليفة انا لا نخالفه ... لقد دلفنا لارواد بارواد
حتى ترونا وعين الشمس فاترة ... في كوكب كشعاع الشمس وقاد
نحش نيران حرب غير خامدة ... تحت العجاج بارواح واجساد
هناك يندبون مروان وشيعته ... ويطرقون حذار المنبر العادي

وحين مدح محمد بن ابي العباس قال(٢٨) :

وانت ابن رادى امية بالقنا ... جهارا وبالبصرى ضربا مؤيدا

اما فيما يتعلق بالمعارضة العلوية فقد ضرب بشار بن برد على اكثر من وتر سياسي حساس ،

في دفاعه عن دعوى العباسيين كما اشرنا الى ذلك سابقا . وسار بشار على الاسلوب العباسي في اطلاق اصطلاح (بني هاشم) على الفرع العباسي فقط ، اما العلويون فكان يسميهم (الطالبيين) .

وفي قصيدة طويلة في مدح المهدي هاجم بشار عبدالله بن الحسن المعن وابنيه محمد النفس الزكية وابراهيم فقال :

ان المدعي بمادينا لنحلقه ... بالمدعين ويلقانا بالحساد
ولا يزال وان شابت لهازمه ... مذبذبا بين اصدار وايراد
ينفيه اصحابه منهم اذا حضروا ... وان اتانا وهبناه لرتاد

وفي قصيدة اخرى تعرض بشار للحسن بن ابراهيم الحسني فقال[29] :

سفيه قريش لا تهولنك المنى ... الى ضلة قد نلت سعيك فابعد
يغنيك بالملك الصدى فتروحه ... وحسبك من لهو سماع ومن دد

ويبدو ان اغلب القصائد التي هاجمت المعارضة كانت في عهد المهدي العباسي ذلك لان بشار بن برد كان قد نظم قصيدة طويلة يؤيد فيها حركة ابراهيم بن عبدالله الحسني ويندد بالمنصور وسياسته وكانه توهم بان الحركة ستنتصر لامحالة وان عهد العباسيين الى زوال ؛ ولكن بعد فشل الحركة انقلب بشار وغير كلمات وابيات كانت في القصيدة فاظهرها وكانها في ذم ابي مسلم الخراساني الذي قتله المنصور سنة ١٣٧ هـ / سنة ٧٥٤ م .

وهاجم بشار بن برد الخوارج[30] الذين ثاروا في عهد المهدي وانضموا الى يوسف بن ابراهيم المسمى (البرم) في خراسان سنة ١٦٠هـ / سنة٧٧٧ م فقال :

قتلت الشراة الناكثين عن الهدى ... وقنعت بالسيف المقنع بالكفر

وندد بشار بن برد بحركة المعارضة الفارسية وتعرض للمتمردين من الفرس امثال المقنع الخراساني الذي ثار بخراسان سنة ١٥٩هـ وتبعه العديد من اهل الصغد وبخارى وكش وغيرهم وقضى المهدي على حركته سنة ١٦٣هـ / سنة ٧٨٠م فقال بشار[31] :

فاصبحوا في رقاد الملك قد خفتوا ... ولم يكونوا على الهواي برقاد
مثل المقنع في ضرب له سلفوا ... اذباح اسبد للابطال صياد

وعارض بشار بن برد عقيدة المعتزلة واختلف مع واصل بن عطاء الغزال وعمرو بن عبيد حتى دعوا الى قتله .

من ذلك كله نلاحظ ان بشار بن برد هاجم حركات المعارضة ونقد حججهم وعارض اراءهم ولذلك فان شاعرا كبشار لايستبعد ان تنسب اليه ابيات في الالحاد والزندقة او في الشعوبية لم يقلها !!

الخاتمة :

كان بشار بن برد ـ على عكس النظرة المتعارف عليها بين مؤرخي الادب العربي ـ من شعراء السياسة في عصره فقد طرق اغراضا عديدة في السياسة ربما لم يطرقها من عد من شعراء السياسة في مطالع العصر العباسي .

على ان بشارا لم يكن شاعرا سياسيا ملتزما بل كان متذبذبا حائرا يقول الراي ثم يقول ضده وكان هجاؤه بذيئا ومبتذلا ويذهب نسيبه وتشبيبه الى ابعد الحدود لدرجة ان الخليفة المهدي نهاه عن

التشبيب(٢٢) !! . كل ذلك ورغم قصائده القوية فيدعم حجج العباسيين لم يقرب بشار او يصطنع من قبل السلطة العباسية بسبب نفسيته الحائرةالمتذبذبة التي لم تشجع الخلفاء على الثقة به .

لقد مدح بشار بن برد الامويين ثم هاجمهم ونقد بسياستهم ، ثم ايد الدعوة العباسية والدولة الجديدة ولكن ما ان ثار العلويون من الفرع الحسني حتى اندفع بشار مؤيدا ابراهيم بن عبدالله ، وهاجم الخليفة ابا جعفر المنصور قائلا(٢٣) :

ابا جعفر ما طول عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل يسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ... ويصرعه في المازق المتلاحم
كانك لم تسمع بقتل متوج ... عظيم ولم تسمع بفتك الاعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم ... وامسى ابو العباس احلام نائم

حتى يقول: ومروان قد دارت على راسه الرحى ... وكان لما اجرمت نزر الجرائم
فاصبحت تجري سادرا في طريقهم ... ولا تتقي اشباه تلك التقائم
تجردت للاسلام تصفو سبيله ... وتقري قطاه لليوث الضراغم
فمازلت حتى استنصر الدين اهله ... عليك ففازوا بالسيوف الصوارم
فرم وزرا بينجيك يابن سلامة ... فلست بناج من مضيم وضائم
لحى الله قوما راسوك عليهم ... وما زلت مرؤوسا خبيث المطاعم
اقول لبسام عليه جلالة ... غدا اريحيا عاشقا للمكارم
من الفاطميين الدعاة الى الهدى ... جهارا ومن يهديك مثل ابن فاطم
اذا بلغ الراي مشورة فاستمن ... براي نصيح او نصيحة حازم

وقد غير بشار كلمات في القصيدة قبل ان تشتهر . وبعد فشل حركة ابراهيم بن عبدالله وجهها في ذم ابي مسلم الخراساني !!

وحين جاء الخليفة المهدي الى الحكم دعم بشار بن برد اجراءاته السياسية المختلفة ومدحه بقصائد رائعة ذات مغزى سياسي كبير فيها من قوة الحجة والبلاغة والحس السياسي المرهف الشيء الكثير ولكن المهدي لم يقرب بشاراً ولم يلتزمه بسبب ما عرف عنه من عدم التزام وعجاء مقذع وتشبيب وعندئذ لم يتورع بشار من هجاء الخليفة ووزيره يعقوب بن داود قائلا(٢٤) :

بنو امية هبوا طال نومكم ... ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الزق والعود

لقد كان بشار من فحول شعراء السياسة في عصره حيث تعتبر قصائده مرآة انعكس عليها الكثير من الاجراءات السياسية للسلطة واوضحت كذلك الصراع الدائر بين مختلف التيارات السياسية الا ان عدم التزامه بخط معين مثل غالبية شعراء السياسة في عصره افقد شعره الشيء الكثير من الاهمية بالنسبة لمعاصريه . ولكن هذه القصائد نفسها ومغازي سياسته تعتبر بالنسبة للمؤرخين المحدثين وثائق لا تقل اهميتها عن الروايات التاريخية .

الهوامش :

(١) راجع ابا الفرج الاصفهاني ـ الاغاني ـ دار الكتب ـجـ٣ ص١٣٥ جـ٦ ص٢٤٢ ـ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ٧ ص ٧٣٢ .

(٢) شوقي ضيف ، العصر العباسي الاول ، ص٢٠١ طبعةدار المعارف ـ احمد الشايب تاريخ الشعر السياسي ،١٩٥٣ القاهرة ـ د . محسن غياض ـ التشيع واثره .

(٣) راجع ديوان بشار بن برد ، تحقيق محمد الطاهر بنعاشور ، القاهرة ١٩٥٠ ـ جـ١ ص١٤٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦ ، جـ٢ ، ١٧٢ .

(٤) ديوان بشار بن برد جـ٣ ص٢٤٧ ـ جـ١ ص٣١٦ .

(٥) المصدرالسابق جـ١ ص٣١٦ .

(٦) المصدر السابق جـ١ ص٢٥٤ .

(٧) المصدر السابق جـ٣ ص٤٠ .

(٨) المصدر السابق جـ٤ ص١٥٣ .

(٩) راجع د . فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، دارالعلم ، بيروت ١٩٧٧ ص٥٢ .

(١٠) ديوان بشار جـ١ ص٢٣٧ .

(١١) المصدر السابق جـ٣ ص٢٠٠ ، كذلك جـ١ ص٣٢٤ .

(١٢) راجع : المصدر السابق ، جـ٣ ص٢٠٠ كذلك جـ١ ص٣٢٦

(١٣) المصدر السابق جـ١ ص٢٧٧ (راجع الابيات الاولى منالقصيدة) .

(١٤) المصدر السابق .

(١٥) المصدر السابق جـ٣ ص٣٦ .

(١٦) المصدر السابق جـ٣ ص٤٥ .

(١٧) المصدر السابق جـ٣ ص٤٥ .

(١٨) المصدر السابق جـ٣ ص٢٨٦ ، جـ٤ ص٢٩٤ ـ ٢٩٩ .

(١٩) المصدر السابق جـ٣ ص٣٠٨ .

(٢٠) المصدر السابق جـ١ ص٢١٥ ، جـ٣ ص٧٥ .

(٢١) راجع : د . فاروق عمر ، بحوث التاريخ العباسي ، ص

(٢٢) حول اصل بشار وفخره بنفسه ، راجع مقدمة ديوانبشار بن برد تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، القاهرة ١٩٥٠.

(٢٣) راجع : مجلة المورد ١٩٨٠ مقالة د . فاروق عمر حولالجند الاموي والجيش العباسي ص٢٣٤ فمابعد .

(٢٤) ديوان بشار جـ٣ ص٢٩٨ ، ص٣٠١ .

(٢٥) ديوان بشار جـ٣ ص٢٢٩ .

(٢٦) ديوان بشار جـ٤ ص١٦٣ .

(٢٧) ديوان بشار جـ٣ ص٢٩٨ .

(٢٨) ديوان بشار جـ٣ ص٣٧ .

(٢٩) ديوان بشار جـ٣ ص٧٣ .

(٣٠) ديوان بشار جـ٣ ص٢٨٦ .

(٣١) ديوان بشار جـ٣ ص٢٨٦ .

(٣٢) ديوان بشار جـ١ ص٢٤١ ، جـ٤ ص١٨٧ ، ٢١١ .

(٣٣) ديوان بشار جـ٤ ص١٦٩ ، ١٤ .

(٣٤) ديوان بشار جـ٤ ص٤٥ قارن جـ٣ ص٩٢ ـ بل تنسبالى بشار بن برد ابيات اكثر ابتذالا في هجاء المهدي راجع جـ٤ ص٢٠٧ .